جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
قسم التاريخ والآثار

محاضرات وحدة:
الحركات المذهبية وتصورها في المشرق والمغرب الإسلاميين

الموسم الجامعي: 2025/2024 مستوى: الثانية تاريخ المجموعة "أ"
اليوم: الخميس 1 شعبان 1446هـ الساعة: 08.00- 09.30 قاعة المطالعة

– مدلول الأشعرية:

الأشاعرة هم فرقة من الفرق الكلامية و هي في الأصل نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، الذي ترك مذهب الاعتزال واستقل عنه، ولقد أصبح الانتساب إلى الأشعري هو ما عليه أكثر الناس في البلدان الإسلامية، و بعد ظهور أبي الحسن الأشعري انتصارا لمذهب أهل السنة متخليا عن مذهب المعتزلة في الأربعين من عمره. كان له الأثر الكبير في إحياء السنة حتى كاد يقضي على مذهب الاعتزال، حيث يورد ابن خلكان " أن أبو بكر الصيرفي قال: كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجرهم في أقماع السمسم".

يلخص الشهرستاني عقيدة الأشعرية في "ومذهبه [أبو الحسن الأشعري] في الوعد والوعيد والأسماء و الأحكام و السمع و العقل، مخالف للمعتزلة من كل وجه؛ قال: الإيمان هو التصديق بالقلب، أما القول باللسان و العمل على الأركان ففروعه، فمن صدق بالقلب أي أقر بوحدانية الله تعالى و اعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاؤوا به من عند الله بالقلب صح إيمانه حتى لو مات في الحال كان مؤمنا ناجيا، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكار شيء من ذلك، و صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة، يكون حكمه إلى الله تعالى؛ إما أن يغفر له برحمته؛ و إما أن يشفع فيه النبي صلى الله عليه و سلم، إذ قال: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، و إما يعذبه بمقدار جرمه، و إما يدخله الجنة برحمته، و لا يجوز، أن يخلد في النار مع الكفار...".

وقد ازدهر مذهب الأشاعرة بظهور حجة الإسلام الغزالي. الذي وجه نشاطه إلى الإشادة بمذاهب السنة و الحط من شأن الاعتزال والفلسفة و شرحها وقد دارت مناظرات بين أبو الحسن الأشعري و الشيخ الجبائي حول ثلاثة أخوة الأول مؤمنا تقيا و الثاني شقيا، و الثالث كان صغيرا، فماتوا فكيف حالهم؟ فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، و أما الكافر ففي الدركات و أما الصغيرة فمن أهل السلامة، فقال الأشعري، إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟ فقال الجبائي: لا لأنه يقال له : أخوك إنما وصل هذه الدرجات بطاعته الكثيرة و ليس لك تلك الطاعات، فقال الأشعري فإن قال: ذلك التقصير ليس مني فإنك ما أبقيتني و لا أقدرتني على الطاعة، فقال الجبائي: يقول البارئ عز و علا: كنت أعلم لو بقيت لعصيت و صرت مستحقا للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك، فقال الأشعري: فلو قال الأخر الأكبر يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي فلم راعيت مصلحته دوني؟ فانقطع الجبائي.

أما عن عقيدة الأشعرية فهي لها رأيين رئيسيين، الأول هو عدم إعطاء قيمة مطلقة للعقل تجنبا لعدم نصرة الدين و الثاني أنه لابد من الإيمان أن في الدين أحكاما توفيقية، وقد مر الأشعري بثلاثة أحوال في عقيدته: فالحال الأول هو حال الاعتزال والحال الثاني: إثبات الصفات العقلية السبع، و الحال الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكييف و لا تشبيه حريا على منوال السلف كما في الإبانة.

ولم يكن الغرب الإسلامي بمعزل من التحولات الفكرية التي تعرفها بلدان المشرق، كما أن علماء المشرق أنفسهم كانوا حريصين على أن تصل آراؤهم و مذاهبهم إلى مختلف ربوع العالم الإسلامي وكانت بوابة الغرب الإسلامي و معبر الآراء و المذاهب، إليه تونس أو إفريقية بتعبير القدماء و خاصة حاضرة القيروان، و من بين تلك المذاهب : المذهب الأشعري، فمتى وصل هذا المذهب إلى أرض المغرب الإسلامي؟ و من هم أبرز أعلامه؟و ما موقف المغاربة منه؟ و ما هو تقييم حضور هذا المذهب؟

2- ظهور الأشعرية في المغرب:

تورد بعض المصادر أخبار عن حضور للمذهب الأشعري قبل القرن السادس الهجري منهم كتاب جامع مسائل الإحكام للبرزلي الذي قال فيما معناه: لعل أول بذرة للأشعرية بالقيروان هي التي حملها إبراهيم بن عبد الله المعروف بالقلانسي (ت 359 هـ أو 631م)، و قد ذكر أنه كان من مشايخ الأشعرية ونسب إليه بعض آراء الأشعري التي أدخلها إلى القيروان.

يشير محمد زاهد الكوثري لهذا الحضور فيقول "و دانت للسنة على الطريقة الأشعرية أهل البسيطة إلى أقصى بلاد إفريقية ، وقد بعث الباقلاني، في جملة ما بعث أصحابه إلى البلاد عبد الله الحسين بن عبد الله بن حاتم الأزدي إلى الشام، ثم إلى القيروان، و بلاد المغرب، فدان له أهل العلم من أئمة المغاربة و انتشر المذهب إلى صقلية و الأندلس". و من بين المتأثرين

من أهل القيروان بالأشعرية أبو الحسن بن علي بن محمد القابسي(ت403 هـ/1012) وكان شديد الصلة بتلاميذ الباقلاني و كان كثير الثناء على الأشعري حتى أنه ألف رسالة في فضله و بيان إمامته.

و من التلاميذ البارزين للباقلاني أبو عمران الفاسي (430هـ/1038م) الذي تتلمذ أيضا على يد القابسي بالقيروان و الأصيلي بقرطبة، ثم جلس يدرس بالقيروان مدة طويلة، وعنه أخذ العلم جموع من الطلبة من كان بأنحاء المغرب والأندلس.

ويشير الدباغ في كتابه معالم الإيمان "إلى أنه تدفقت عليه" [أبو عمران الفاسي] جماعة كثيرة كعتيق السوسي، و أبي القاسم السوري (ت 462هـ) وجماعة من الفاسيين والأندلسيين، و صارت فتواه في المشرق و المغرب".

ورغم هذا لم يكن "أهل المغرب قبل رجوع المهدي من المشرق يعتنقون مذهب الأشعري في العقيدة وإن أمكن لبعض علمائهم الحصول على علم من هذا المذهب إلا أنه كمذهب متكامل في منهجه كان يواجه بالاحتراز الشديد، و هو ما يجعلنا نوافق ابن خلدون حين قال عن دور ابن تومرت في أنه أول مكن أدخل الأشعرية إلى المغرب و هو "ضمن على أهل المغرب أسرارهم المتشابهات كما جاءت، وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية".

ولقد عبر المراكشي عن احتراز أهل المغرب من الأشعرية "إن أهل ذلك الزمان قالوا بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، و قرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، و هجر من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلاف في العقائد".

ويمكن إعطاء صورة أكثر دقة من خلال "أنه لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده بالمكانة إلا من عَلِمَ عِلْمُ الفروع أعني مذهب مالك.... حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحدا من مشاهير ذاك الزمن يعتني بهما كل الاعتناء".

وهذا فيه إشارة لفقهاء ذلك العصر الذين تمكنوا من احتواء السلطة بإحكام السيطرة على الرعية إلى أن عظم شأنهم بعد أن احتلوا هرم السلطة"، وكان من نتيجة ذلك "... أن انصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت أموالهم و اتسعت مكاسبهم". ويذكر الناصري نقلا عن المراكشي أن المقصود بهذه الأبيات هو التعريض بالقاضي محمد بن حمدين قاضي قرطبة ومن كبار علماء المالكية في الأندلس حيث كان له دور أساسي في تحريض علي بن يوسف على إحراق كتاب إحياء علوم الدين.

يتبين من هذا أن دولة المرابطين إثر قيامها في المغرب الأقصى و الأوسط هي التي عطلت نمو الفكر العقدي في اتجاه التأويل الأشعري و أبقت على الطريقة السلفية في إمرار النصوص على ظاهرها. وقد أورد لنا أحد الباحثين المعاصرين ثلاثة عوامل ساهمت في تأخر المغرب في اعتناق الأشعرية:

أولا: قلة المعارضين للعقيدة السلفية بالمغرب مقارنة بالمشرق.

ثانيا: سيطرة الشيعة على القيروان مركز الإشعاع المغربي أكثر من نصف قرن من 297هـ/909م إلى 361هـ/972م، مما ضيق على نمو المذهب السني نحو الأشعرية باستعمال القهر السياسي و العقلي الذي كان يمارسه الشيعة وتعرض القيروان للتخريب من قبل بنو هلال سنة 404هـ/1052م.

ثالثا: تأخر دخول الأشعرية بصفة عميقة إلى مصر لعامل انتقال الحكم الشيعي إليها سنة 361هـ/972م، ولم تنتشر إلا بعد منتصف القرن السادس على يد صلاح الدين الأيوبي (ت 589هـ/ 1093م) الذي كان أشعري العقيدة و ذلك لأن مصر لها دور في نشر المذاهب و العلوم بالمغرب فهي مركز عبور في الطريق إلى الحج.